مجلة العلوم الإنسانية لجامعة أم البواقي
ISSN 1112-9255/E-ISSN 2588-2414
المجلد09 العدد 02 – جوان 2022

OEB Univ. Publish. Co.

"البعد الاثنوغرافي في الخطاب الرحلي عند محمد البشير الإبراهيمي"، رحلتي إلى الأقطار الإسلامية، باكستان أنموذجا.

The ethnographic dimension in the nomadic discourse of Muhammad al-Bashir al-Ibrahimi, my journey to Islamic countries, Pakistan as a model

عواج حليمة[1]*

[1] جامعة باتنة -1-، aouadjhalima@gmail.com

تاريخ التسليم: 30-01-2022 تاريخ التقييم: 07-02-2022 تاريخ القبول:21-02-2022

الملخص

يختلف فن الرحلة في تركيبته الخارجية (الترحال والتنقل) والداخلية (النص) عن بقية الفنون النثرية الجزائرية الأخرى، مما منحها التميز والازدهار والانتشار على أيدي رحالة بارزين، صنعوا له قوالب خاصة به من حيث الوضوح في الجوانب، والتحديد في المعالم، وكان من بين هؤلاء الرحالة "محمد البشير الإبراهيمي"، رغم إسهاماته القليلة في هذا الفن مقارنة مع كتاباته الكثيرة في مختلف ألوان النثر من مقالة وخطابة ورسالة وغيرها– فحين يعدد إنسان فنون الأدب عند الإبراهيمي قلما يذكر هذا اللون– إلا أنه استطاع من خلاله تحقيق أهداف عدة لم يستطع تحقيقها في الجزائر بفعل السياسة الاستعمارية الفرنسية، كان من أهمها: فتح آفاق علمية وفكرية وإنسانية.

لذا جاءت هذه الورقة البحثية لتكشف عن ذلك وفق مناهج علمية دقيقة من حيث الوصف والتحليل من منظور اثنوجرافي.

الكلمات المفتاحية: فن الرحلة، الإبراهيمي، التصوير الاثنوجرافي.

Abstract

Travel art is different in its both external structure (traveling and moving) and interior one (text) from the rest of the Algerian prose genres, which gave it excellence, prosperity and spread by prominent travelers, who made their own molds in terms of clarity aspects and parameters settings. Among them was Mohammed El Bashir El Ibrahimi, in spite of his few contributions to this art compared with many of his writings in various prose genres such as : article, speech and letter - when we enumerate the literature arts of El Ibrahimi, rarely we find this genre – but, through it, he was able to achieve several goals that he couldn't be reached in Algeria by the French colonial policy, the most important of which are the opening of scientific, intellectual and humanitarian prospects.

So, this research paper came to reveal this according to accurate scientific methods in terms of description and analysis from an ethnographic perspective.

Keywords : Travel Art, El Ibrahimi, Ethnography.

***المؤلف المراسل: حليمة عواج، الإيميل: aouadjhalima@gmail.com**

1.مقدمة:

يعد فن الرحلة من الفنون النثرية التي لاقت رواجا كبيرا في الوسط الأدبي العربي قديما وحديثا، بفضل قيمته العلمية والأدبية، أضف إلى الجانب الإمتاعي، سواء تعلق الأمر بالمؤدي (الأديب الرحالة) أو المتلقي (القارئ المتذوق).

كما تتمتع الرحلة في الأدب العربي بقدرة سحرية في جعل العمل الفني متساوقا بشكل أنيق جميل يجمع بين الهدف والاتجاه، وبين الشكل والمضمون حيث يخرج في النهاية لوحة فنية تتماهى فيها الأشكال والألوان والصور لتقدم بين أيدينا فنا نثريا يتميز عن غيره بميزة خاصة تتمثل في معايشة الواقع وملامسته بصورة حقيقية تجمع فيه بين فنون نثرية عديدة أهمها القصة التي تتداخل معها في خاصيتي السرد والوصف، حيث "يرد هذا الفن في شكل قصة تروي جملة من الأحداث خلال فترة السفر وتعتمد على الوصف المباشر لكل ما يحيط بالرحلة..." (دلاندة، 2016، ص67).

كما لا تخلو بعض الرحلات من عنصر الخيال الذي يعتبر من أهم أدوات النص الأدبي، وذلك حين يصطدم الكاتب "بالواقع ولا يجد ما كان يتوقعه من أحلام فيلجأ حينها إلى الخيال، لأنه العالم الوحيد الذي تتحقق فيه كل الأمنيات، غير أن الوصف يظل هو السمة الغالبة في هذا الفن."(دلاندة، 2016، ص67).

ومن هنا نفهم أن الرحلة في مضمونها الأدبي تؤدى بشكلين: أحدهما واقعي محض، والآخر يتمازج فيه الواقع والخيال في توافق تام يحقق المتعة والفائدة في آن واحد. فالشكل الأول "يوضح قيمة الأدب الذي يعكس ثقافة الشعوب ويصور عاداتهم وتقاليدهم وحتى ثقافاتهم في شكل فني بديع يقترب من القصة..." (دلاندة، 2016، ص67).

أما الثاني فيعتبر "نوعا جديدا من الخيال الإبداعي الممتع الذي يتمازج فيه الواقعي في تناغم يحدث الشهية والمتعة لدى القارئ."(حمادي، 2004، ص45).

وكلا الشكلين لهما دور فعال في النهوض بهذا الفن لتحقيق غاياته العظيمة بما يقدمان من مادة خام تحتاج إليها عديد العلوم؛ بمعنى أن مضمون فن الرحلة واسع غني متشعب يشمل جميع جوانب الحياة إذا ما قورن بغيره من فنون النثر التي تقتصر على جانب بعينه اجتماعيا كان أو تاريخيا أو سياسيا أو ثقافيا أو اقتصاديا...إلخ، وعليه فإن فن الرحلة "تتوفر فيه مادة وفيرة مما يهم المؤرخ والجغرافيا وعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي الآداب والأديان والأساطير. فالرحلات منابع ثرة لمختلف العلوم، وهي بمجموعها سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مر العصر.

"(حسني، 1983، ص6).

وعن فائدة الترحال يقول الإمام الشافعي:(الشافعي، 2011، ص24).

سَافِرْ تَجِدْ عِوَضًا عَمَّنْ تُفَارِقُهُ وَانْصَبْ فَإِنَّ لَذِيذَ العَيْشِ فِي النَّصَبِ
إِنِّي رَأَيْتُ وُقُوفَ المَّاءِ يُفْسِدُهُ إِنْ سَاحَ طَابَ وَإِنْ لَمْ يَجْرِ لَمْ يَطِبِ
وَالْأُسْدُ لَوْلَا فِرَاقُ الأَرْضِ مَا افْتَرَسَتْ وَالسَّهْمُ لَوْلَا فِرَاقُ القَوْسِ لَمْ يُصِبِ
وَالشَّمْسُ لَوْ وَقَعَتْ فِي الفُلْكِ دَائِمَةً لَمَلَّهَا النَّاسُ مِنْ عُجْمٍ وَمِنْ عَرَبِ.

فخلف هذه الأهمية تحدد عنوان البحث الذي كشف بدوره عن أسباب رئيسة دفعت الباحث للخوض في هذا الموضوع الثري المفيد هي كالآتي:

– الجدة والأصالة: فرغم اهتمام القدماء والمحدثين بفن الرحلة في جوانب عدة، وفي مختلف أنواعها إلى أن هذا الموضوع في نظرنا لا يزال يحتاج إلى دراسات عميقة خاصة إذا تعلق الأمر بموضوع "الاثنوجرافيا".

– غياب الدراسات الأكاديمية التي تناولت الرحلة عند محمد البشير الإبراهيمي، فقد احتل فن الرحلة الأدبية حيزا كبيرا في التراث العربي الإسلامي، فبرزت فيه أسماء كثيرة معروفة أمثال: اليعقوبي والمسعودي والإدريسي، وابن بطوطة وابن جبير إلى العصر الحديث مع الورتلاني، ورفاعة الطهطاوي، وخير الدين التونسي وغيرهم كثير، وقلما يذكر فيها رحلات محمد البشير الإبراهيمي، ومن هنا كان هدف الباحث سد هذه الثغرة، وإضافة لبنة جديدة في الصرح الحضاري الرحلي.

– الرغبة في اكتشاف الحقائق المخبوءة خلف اهتمام محمد البشير الإبراهيمي بفنون القول المختلفة بنسب كبيرة إذا ما قورن بفن الرحلة، فالتوصل إلى الحقيقة كان لغرضين: الأول يتمثل في إشباع الفضول العلمي، أما الثاني فيتجسد في متعة البحث في جديد يحدوه اكتشاف سر التميز عند الإبراهيمي.

وأمام سعينا الحثيث لاكتشاف الحقائق العلمية لموضوع بهذا القدر من الأهمية، حاصرتنا مجموعة من الأسئلة تبحث عن إجابات وافية لا تتأتى لنا إلا باتباع منهج علمي دقيق وواضح في تحديد المضمون وفي إبراز النتائج، ولعل أهم إشكالات البحث الرئيسة الآتي:

- هل وُفِّقَ محمد البشير الإبراهيمي في التحكم في آليات وكذا مكونات الرحلة؟ أم أنه ركز على جوانب دون أخرى؟
- ما هي أهم المعوقات التي صادفت الإبراهيمي أثناء ممارسته هذا الفن؟ وإلى أي مدى كان التأثير والتأثر؟
- هل استفاد الابراهيمي من رحلته إلى باكستان؟ وكيف؟

- ما هي أساسيات موضوع الاثنوجرافيا في رحلة الإبراهيمي؟

سنحاول من خلال هذا البحث تحليل ودراسة رحلة الإبراهيمي إلى باكستان في ضوء خطة ترتكز على مبحثين: مضمون الرحلة، والتصوير الاثنوغرافي فيها، نتحرى فيهما عدة عناصر هي: الاتجاه، الغرض، المضمون، الصورة.

2. المحتوى والمضمون:

تمَّ ضبط مراحل الرحلة الأساس من خلال منطلقين، الأول يمثله مخطط بياني يعتمد الاتجاه (الذهاب والإياب) والعام، كتقرير لسير الرحلة، مرتكزا على محورين أحدهما يمثل الجزائر، والآخر يمثل المشرق، منطلقا من نقطة مركزية محورية هي الجزائر، على النحو الآتي:

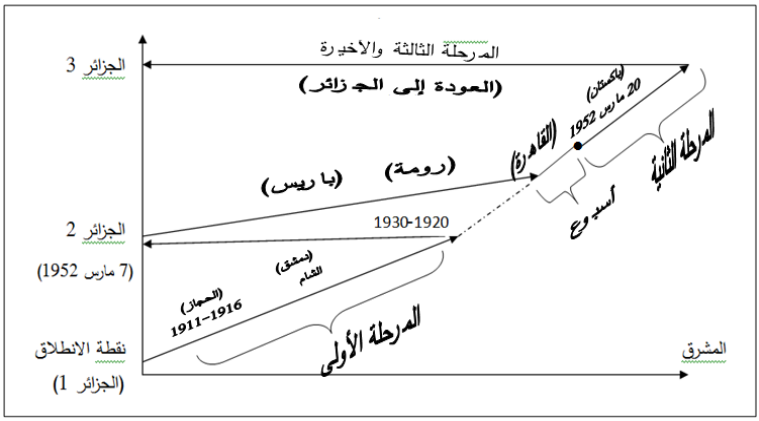

أما المنطلق الثاني فنقدم فيه لمحة تمهيدية لمحتوى الرحلة نحو القاهرة وباكستان.

2. 1 القاهرة:

كان خروجه من الجزائر يوم الجمعة السابع من مارس 1952، فقد تحدث عن ذلك مركزا على أسماء الأشخاص الذين كانوا معه في مطار الجزائر لتوديعه منهم: العربي التبسي، حمزة بوكوشة، وولده أحمد الإبراهيمي...إلخ، ذاكرا أيضا أسماء مستقبلية في مطار باريس، وهما الأستاذان المحاميان عياش بن عجيلة، وأحمد بومنجل، وبعدها صاحبه بومنجل من مطار رومة إلى القاهرة.

ثم يذكر وصوله إلى مطار القاهرة التي كانت محطته الرئيسة واصفا جمال هذه المرحلة بقوله: "... فوصلنا مطار فاروق بالقاهرة على الواحدة بعد نصف الليل، وكانت مرحلة من أجمل المراحل، فالجو صاح والقمر مبدر، والبحر المتوسط تحتنا، مبرقع بقزع من الضباب الأبيض. إنه منظر لم أر في عمري أجمل منه، حتى قطعه علينا منظر أضواء المدن المصرية،

وبدأت الطيارة تنحدر، وقيل هذا مطار فاروق، وكانت الساعة الواحدة بعد نصف الليل."(الإبراهيمي، 1997، ص29)

ولأنه حل بمطار القاهرة بعد منتصف الليل لم يجد أحدا في استقباله، نظرا للأحكام العرفية المنصوبة في مصر والتي تقضي بمنع التجول بعد العاشرة ليلا، لذلك تولى الإبراهيمي بنفسه إجراءات المطار لمدة ساعتين، ثم توجه إلى فندق هليوبوليس بمصر الجديدة ليلة واحدة، حيث تم حجز غرفة له باتفاق بين مكتبي الجامعة العربية وجمعية العلماء بالقاهرة، فوصف ذلك بقوله: "وحجزا لي فيه غرفة للنوم ومكتبا للاستقبال فيه جهاز تليفوني، وكان ذلك في الساعة السادسة من صباح يوم الثلاثاء حادي عشر مارس."(الإبراهيمي، 1997، ص29).

وما كادت شمس الحادي عشر تبزغ حتى توالت عليه الزيارات "حتى كان أول زائر صاحب المعالي الدكتور محمد صلاح الدين باشا، وعبد الرحمن عزام باشا، وكأنما كان على ميعاد... ثم تواترت زيارة الإخوان فملكت الدقائق والثواني، وآنست نفسها طال شوقها إلى مثل هذه المجالس وهؤلاء الإخوان وهذه الأحاديث وأنست الراحة والنوم مع شدة الحاجة إليهما، وما الأسير العاني اشتبهت أيامـه، وظل في الأغلال مقامه."(الإبراهيمي، 1997، ص30)

ويضيف في موضع آخر حديثا له صلة بهذه الزيارات فيذكر فضل هؤلاء الإخوان بقوله: "...ولا أنسى –ما حييت– فضل أولئك الإخوان الذين زاروا وترددوا، ولم تروهم الشربة الواحدة فعددوا، وما منهم إلا عالم، أو نابه، أو كاتب، أو صحافي، أو ذو مكانة اجتماعية، أو تلميذ، ولله تلك الفئة المهاجرة للعلم من أبناء الجزائر، فكأنهم –والله– أبناء بررة يلوذون مني بأب طال غيابه عليهم، ثم تيسر إيابه إليهم..."(الإبراهيمي، 1997، ص31).

ومن ثم تحـدث عن السعـادة التي غمرته في القاهـرة نتيجة قيامـه بعمليـن مهمين بالنسبـة لـه، تمثلا في درس ألقاه في المركز العام للإخوان المسلمين، وفي زيـارته لجامعة فؤاد الأول، أما العمل الأول فـلا يحصر القيمة في الدرس في حد ذاتـه، وإنمـا تكمن قيمتـه في "قيمة حاضريه وبمكانـه، وبالجمعية التي دعت إليه، وبمعنى آخر أسمى من ذلك كله وهو أن وصل بين جمعتين تعملان لإحياء الإسلام الصحيح بإحياء روحانيته."(الإبراهيمي، 1997، ص31).

وبعدها تحدث عن العمل الثاني، ذاكر السبب الذي أسعده، مفتخرا بكل ركن من أركان هذه الجامعة: "... والثاني زيارتي لجامعة فؤاد الأول، واجتماعي بمديرها سعادة عبد الوهاب مورو باشا، وبعض أساتذتها الكرام، وزيارتي لكلية الآداب، وللمكتبة الضخمة، ولقاعات المطالعة والبحث، ولقاعات المحاضرات، فأشهد مخلصا أنني خرجت مرفوع الرأس تيها، مملوء النفس فخرا، مفعم الجوانح إعجابا بهذه الجامعة التي هي مفخرة الشرق وحجته على الغرب، وأشهد مخلصا لقد

أحسست بعد الخروج كأن وجودي تضاعف مليون مرة بوجود هذه الجامعة... ولقد ساءني –والله– أن تكون الجامعة الفخمة حمى للعربية، ولا تكون حمى للإسلام، وإن مجد العربية من مجد الإسلام، وإن في الإسلام لكنوزا من الفلسفة الروحية والكمالات الإنسانية..."(الإبراهيمي، 1997، ص31، 32).

وإلا أن السعادة لم تكتمل لأن لم يزر الجامعة الأزهرية، وأرجع ذلك لضيق الوقت "...فيؤسفني أن وقتي لم يتسع لزيارتها زيارة تليق بمكانتها في نفسي، وإن زارني كثير من أساتذتها الأجلاء، وإن زرت إدارتها ومديرها الأستاذ الجليل محمد عبد اللطيف دراز ردا لزياراته المتكررة، وتنويها بمكانه من جمعيتنا لأنه من رؤسائها الشرفيين، وسأقضي ما فاتني من حقوق الإخوان، وسأستوفي ما حرمته هذه المرة من الزيارات والدراسات في الزورة الثانية لمصر..."(الإبراهيمي، 1997، ص32).

فرغم قصر مدة الإقامة في القاهرة إلا أن الإبراهيمي كان جد سعيد سواء من حيث الجو العلمي والفكري أم من حيث المحيط الإنساني "...ولا أقر عينا، ولا أكثر ابتهاجا مني في ذلك الأسبوع الذي أقمته بالقاهرة، وكأنها أرحام تعاطفت، وأرواح تعارفت فتآلفت، فارتفعت الكلف، وسقط التحفظ والاحتراز."(الإبراهيمي، 1997، ص30، 31).

2. 2 باكستان:

إن الوجهة الحقيقية في عودة الإبراهيمي إلى الشرق كانت باكستان، وما القاهرة إلا نقطة عبور إليها، ونستدل على ذلك في قوله: "كنت يوم خرجت من الجزائر مصمما على أن أقيم في القاهرة يومين، وأواصل السفر بعدهما إلى باكستان، لأن مكان مصر من هذه الرحلة يأتي في الأخير... امتدت إقامتي في القاهرة تسعة أيام، وأحمد الله على أنها كانت عامرة بالفوائد، وما تسعة أيام جنب القاهرة إلا كتسع ثوان، وإن لنا في مصر لمآرب لا تقضى في أيام..." (الإبراهيمي، 1997، ص32، 33).

فرحلته إلى باكستان شملت عدة محاور تمثلت في الآتي:(الإبراهيمي، 1997، ص32، 58).

إلى كراتشي، مشكلة اللغة، بدء الأعمال العامة، كلمتا حق، الزيارات، بقية أعمالي في كراتشي، حفلة جمعية علماء باكستان، رحلتي إلى كشمير والدواخل، بقية أعمالي في كراتشي.

3. التصوير الاثنوغرافي في رحلة الإبراهيمي:

3. 1 المفهوم:

يعد المستوى الأدبي في الرحلة من أبرز مستويات التعبير، الذي يكشف عن كنه أغلب أنواع الرحلات، إضافة إلى مناح أخرى يركز عليها الرحالة في نقل حياة الناس وتقاليدهم وأعرافهم،

وطريقة عيشهم ونظامهم، والكشف عن جوانب عديدة منها: الجغرافية والتاريخية والسياسية والاجتماعية، والدينية أو ما يعرف بالاثنوغرافيا "في قوالب يتآزر فيها الجانب التعليمي بالإمتاع الأدبي."(قينة، 1995، ص11). ما المقصود بالاثنوغرافي؟ وما علاقته بمصطلحات من مثل: الإثنولوجيا، الإثنوبولوجيا؟ وما صلته بأدب الرحلات، وبرحلة الإبراهيمي بالخصوص؟

إن مصطلح الاثنوجرافي كما عرفه حسني محمد فهيم هو: "كلمة معربة تعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد، والعادات والقيم، والأدوات والفنون، والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين، خلال فترة زمنية محددة."(فهيم، 1989، ص43، 44).

كما يتحدث عن مفهوم هذا مصطلح معتمدا على موضوعه الذي حصره في الثقافة الإنسانية حين قال: "وإذا جاز لنا أن نحدد موضوع الاثنوغرافيا –كما هو متعارف عليه أكاديميا في الوقت الحالي– نقول ببساطة وإيجاز إنه الوصف الدقيق والمترابط لثقافات الإنسانية، وبعبارة أخرى– خصوصا إذا استخدمنا المصطلحات المتداولة في كتب التراث العربي– فموضوع الاثنوغرافيا يتعلق أساسا بوصف طبائع البلدان وخصال أهلها وأسلوب حياتهم."(فهيم، 1989، ص44).

وبما أن الثقافة تشمل هذه الطبائع والخصال وأساليب الحياة، فإنها تساعد على التنوع في مادة الرحلات موضوعا وزمانا ومكانا. (فهيم، 1989، ص45).

وعن هذا التنوع يسترسل محمد فهيم بقوله: "فنجد أن من بين الرحالة من اهتم بوصف الأقاليم وطبائع سكانها، ومنهم من أسهب في وصف العادات والتقاليد لأفراد الجماعات الدينية والأثنية في الأماكن التي زارها أو أقام بها، ومنهم من جمع بين الاثنين." (فهيم، 1989، ص46).

فالتنوع في مادة الرحلات يؤدي إلى التنوع الثقافي الذي "يساعدنا ولا شك على فهم مسار الحضارة الإنسانية إذ إن التنوع الثقافي يساهم بلا جدال، في التعبير والتطور الإنساني في مجمله." (فهيم، 1989، ص46).

وكي تتضح لنا معالم هذا المصطلح معنىً وموضوعا وتنوعا في المادة والثقافة، سنحاول الكشف عن تلك العلاقة الدقيقة المتداخلة بينه وبين الإثنولوجيا والإثنوبولوجيا، وحتى لا نذهب بعيدا، فقد قدم محمد فهيم بين أيدينا موازنة شاملة محددة تنم عن دلالة واضحة، يقول فيها: "وفي مقابل هذا المصطلح نجد مصطلحا آخر وهو الإثنولوجيا الذي يهتم بالدراسة التحليلية والمقارنة للمادة الإثنوجرافية بهدف الوصول إلى تصورات نظرية، أو تعميمات بصدد مختلف النظم الاجتماعية الإنسانية، من حيث أصولها وتنوعها. وبهذا تشكل المادة الاثنوجرافية قاعدة أساسية للبحث الإثنولوجي، فالاثنوجرافيا والإثنولوجيا مرتبطتان إذا وتكمل الواحدة الأخرى، وهما تشكلان مجالين

دراسيين هامين في إطار مجالات الدراسات العامة (للإثنوبولوجيا) التي يقصد بها ذلك النسق المعرفي المنهجي (لدراسة الإنسان طبيعيا واجتماعيا وحضاريا..." (فهيم، 1989، ص44).
ويمكن أن نعبر عن هذه الموازنة كالآتي:

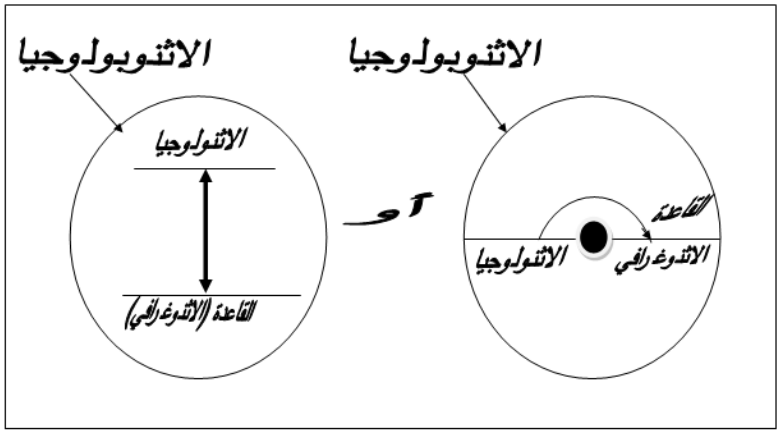

وانطلاقا مما سبق يضطرنا البحث لضبط الرؤية أكثر من خلال تسليط الضوء على إشكالية طرحت في بداية هذا المطلب، تفيد التمييز بين أهداف الرحالة والاثنوجرافي، لنفهم الصلة بينهما، على وجهين العام والخاص.

إن ما أورده محمد فهيم يوحي بعمق الدلالة، وبوضوح فهمها، حين أدلى بدلوه عن القضية، انطلاقا من مفهوم الرحلة، حيث يقول: "...ومع أن الرحلة أي الانتقال من مواطن الشخص إلى أقطار وبلدان بعيدة، تشكل متطلبا رئيسا للدراسة الحقلية الاثنوجرافية، إلا أن الاثنوجرافي لا يهتم بالرحلة لذاتها، وما ينجم عنها من أحداث ومواقف قدر اهتمامه بوصف المكان الذي قصده والناس الذين تعايش معهم لفترة طالت أم قصرت..." (فهيم، 1989، ص62، 63).

ثم يضيف مسترسلا في الشأن ذاته وله: "إنه إذا قلنا إن أدب الرحلات يصور أساسا خبرة اتصال الرحلة بثقافة معينة (أو عدة ثقافات) فإن الاثنوجرافيا يهدف أولا إلى وصف وتحليل الثقافة (أو الثقافات ذاتها)... فبينما يتوقع من الاثنوجرافي إعداد مادته وتحليلها ونشرها فيما اصطلح على تسميته «بالمونوجراف»...فإن الرحالة فينتهي به الأمر إلى تدوين مذكرات عن الرحلة، أو ربما يحتفظ بواقعها وأحداثها في ذاكرته، ويكتفي بروايتها لكل من يرغب في الاستماع إليها، إن نتاج العمل الاثنوجرافي هو «الدراسة» التي تخضع لقواعد وأصول معينة، أما أدب الرحلات فهو «رواية التفاعل بين الذات والآخر» والذي يترك فيه للرحالة حرية التعبير الكاملة، وأن يطرق من الموضوعات ما يراه هاما وشيقا." (فهيم، 1989، ص63).

إن التمعن في هذه الموازنة بين مهمة الرحالة، ومهمة الاثنوجرافي يدرك مباشرة مدى صعوبة مهمة الإبراهيمي الذي دمج بين المهمتين لينتج بعد ذلك نوعا آخرا، يمكن تسميته فنا رحليا اثنوجرافيا بامتياز. وهذا ما سنحاول الكشف عنه في المطلب الموالي؟

3. 2 التصوير الاثنوجرافي:

للإشارة فإن الاثنوجرافي يتلقى تدريبا كافيا في الجامعات والمعاهد المتخصصة قبل شروعه في البحث، ويتضمن هذا التدريب الإلمام بلغة مجتمع الدراسة، وأصول جمع المادة الحقلية، وإعداد المونوجراف.(فهيم، 1989، ص71).

فلا غرو إذن حين نقول إن الإبراهيمي مدرسة أكاديمية في حد ذاته في مجالي الرحلة والاثنوجرافيا، فرغم مشكلة اللغة التي تحدث عنها في الرحلة بقوله: "وأنا لا حظ لي في شيء من هذه اللغات، ولم يفتق الله لساني إلا بالعربية، وأنا راض بهذا، وإن كنت لا أدري أي نوع من أنواع الرضى هو: أَرِضَى العاجزين أم رضى المكابرين؟ لذلك وجدتني من أول لحظة في مشكلة لا تحل، وفي حرج لا يدفع، حتى في طلب الماء البارد من خادم الفندق، وفي التحية مع الزائر، وضيوف كراتشي من أبناء العربية كلهم مثلي..."(الإبراهيمي، 1997، ص40).

فرغم ذلك إلا أنه استطاع أن يجمع بين عديد المجالات، فقد نشط في رحلته إلى باكستان سياسيا وثقافيا ودينيا وسياحيا، فتعرف على (باكستان) نظاما وشعبا واطلع على معالم وأوضاع في هذا البلد الإسلامي، فنمّى معارفه عن جغرافيته ونظامه وسياسته، وجوانب من الوضع الاجتماعي والديني فيه...

السؤال الذي يطرح نفسه: ما المستوى التعبيري الذي انتهجه الإبراهيمي في هذا التصوير الاثنوجرافي؟

للإجابة عن هذا التساؤل وجب علينا تقديم نظرة عامة عن أسلوبه في الكتابة، ومن ثم ربطها بأسلوب التصوير الاثنوجرافي للرحلة؟!

يعتبر عبد الملك مرتاض الإبراهيمي زعيما للمذهب الفني التعبيري في الكتابة العالية، ويُرجع ذلك إلى ثقافته العربية العميقة، وحفظه الموفور للمقامات والخطب، والأشعار وشوارد الأمثال ونوادر اللغة، وغيرها.(مرتاض، 1983، ص328، 332).

ويختصر عمر بوقرورة سمات الكتابة لدى الإبراهيمي بقوله إنه "خطيب بليغ، ولغوي بارع وسجاع ورجاز..."(بوقرورة، 2004، ص103).

إن الإبراهيمي امتلك ناصية الكتابة بكل وسائلها، فأبدع في النثر بكل فنونه، وفي الشعر أيضا، ولا يضاهيه أحد من أقرانه "فهو جاحظ عصره، وبديع زمانه، مما جعله بحق معجزة من معجزات الثقافة العربية الإسلامية في القرن العشرين." (بوقرورة، 2004، ص19).

وفي ذلك يقول محمد العيد آل خليفة، ذاكرا فضل الإبراهيمي على الدول العربية والإسلامية خلال رحلاته إليها:" إن البشير أديب العصر عالمه ... سل المدينة عما قد روى وحوى كتبا وواصل من بحث وتساءل، سل الرياض وسل أم القرى فهما أدرى بما نال من عز وإقبال، وسل دمشق فقد جاد تربتها، بمرجحن من الآداب هطال، سل العراق وباكستان عن حِكَمٍ على الجماهير ألقاها وأمثال، سل الكويت فقد أسدى لها خططا مختارة في قضايا العلم والمال، سل الكنانة عما بث فيها من فكر ثورية وروى من صدق وأقوال، وسل فلسطين كم نادى لنصرتها في موقف منه قوال وفعال، سل الجزائر عما سن من نظم مثلى وضحى لها من عمره الغالي، وعن دروس إلى الإصلاح داعية بحكمة لم تُثِرْ إنكار عذال ." (بوقرورة، 2004، ص21).

وانطلاقا من المعطيات السابقة سنحاول تحديد المضمون الاثنوجرافي بالتركيز على ماهيته التي تكشف عن مستويات التعبير في الرحلة من جهة، وعن سمات الرحالة من جهة أخرى على النحو الآتي:

المضمون الاثنوجرافي	
مستويات التعبير	**سمات الرحالة**
– طابع صحفي. – طابع أدبي خالص (سردي وصفي)	جمع الإبراهيمي بين رزانة العالم ووقار رجل الدين، ونضج السياسي ذي النظرة الواسعة، وحس عالم الاجتماع.

(بن قينة، 1995، ص155)

لقد بدا تصويره الاثنوجرافي في الرحلة واسعا شاملا، بالاعتماد على ركنين أساسيين، الأول رحلي بحت يروي فيه التفاعل بين الذات والآخر، متبعا أسلوبا سرديا يعتمد على الوصف المباشر في حرية مطلقة، حيث تطرق لعديد الموضوعات، سواء ما ورد في عناوين محاور الرحلة أم في مضمون عديد المحاضرات والخطب التي ألقاها، والأمثلة على ذلك كثيرة، نسوق بعضا منها على النحو الآتي:

التفاعل بين الذات والآخر	الوصف	تعدد الموضوعات
المثال الأول: مقطع من محور "بدء الأعمال العامة". يقول فيه: "وألقيت قبل الصلاة محاضرة طويلة ترجمها المترجم فصلا فصلا، وكان التأثر بها عظيما... فخطبت خطبة الجمعة من غير ترجمة، ولكن إحساس المصلين قام مقام الترجمة، فكان تأثر، وكان خشوع، وكان اتصال روحاني بين السامع والمسموع." ص43. **المثال الثاني:** مقطع من "بدء الرحلة". يقول فيه: "...وكأنها أرحام تعاطف، وأرواح تعارفت فتآلفت فارتفعت الكلف، وسقط التحفظ والاحتراز..." ص30، 31. **المثال الثالث:** مقطع من محور "إلى كراتشي". يتحدث فيه عن الأيام الأولى لوصوله إلى كراتشي حيث يقول: "...وكانت موائد الضيافة تجمعنا كل يوم	**المثال الأول:** مقطع من محور "بقية أعمالي إلى كراتشي". يصف فيه مناظر طبيعية في كشمير يقول فيها: "...واستقبلنا صفحات أخرى من قمم وغابات متقطعة وقرى متقاربة وحقول قمح وشعير تظهر كالسطور في اللوح لضيقها واستطالتها، وتدرجها من أعلى إلى أسفل، وهو يبتدئ أول سطر من أعلى جبل وينتهي آخر سطر في حافة الوادي، وما أعجب هذا المنظر وما أجمله، لكأنك ترى فيه ميزانا «تيرمومتر» إلهيا بديعا لدرجات الحرارة، فترى –في صفحة واحدة– السطر الأخير على ضفة الوادي أصفر السنابل، علامة النضج والإفراك... حتى تقع عينك على الحقل الأعلى فإذا هو أخضر نضر لم تتكون فيه القصبات ولا الكعوب، كأظهر ما يكون الفرق بين منطقتين متباعدتين عندنا في الجزائر، أو كمن يستدبر بسكرة ويستقبل باتنة في سني تبكيرها	من هذه الموضوعات ما ورد –مثلا– في محور: "بدء الأعمال العامة". حين قال: "ألقيت أول محاضرة قبل صلاة الجمعة... وكان موضوع المحاضرة وظيفة العالم الديني في الإسلام، فشرحت وفصلت، وبينت فأبلغت، ووسمت العلماء بالتقصير في أداء الأمانة، والتفريط في قيادة المسلمين حتى قادهم من لا يحسن القيادة، فقادهم إلى الهلاك..."ص42. – ويقول أيضا في مقطع آخر وفي موضع آخر من هذا المحور "...ولما كانت هذه المحاضرات وهذه الخطب الجمعية كلها وصفا لداء المسلمين ودوائهم، كان التأثر بها عظيما." ص43.

وكل ليلة في دورهم على التناوب، فتتطاير النكت الأدبية، وتشيع البشاشة والأنس، وتتجلى الأخوة في حقيقتها، ويشهد الكرم لنفسه: كرم الطعام، وكرم الكلام (حتى كلنا رب منزل) فلا تبدر من أحدنا بادرة، إلا وأتبعها الأميري بنادرة، وعلى كل مائدة من هذه الموائد العربية الكريمة يحضر الاثنان والجماعة من كرام الإخوان الباكستانيين." ص35، 36.	وخيرها... ولعمري إن هذا لأجمل منظر رأته عيناي في حياتي كلها". ص57، 58. **المثال الثاني:** مقطع من محور "إلى كراتشي". يصف فيه الشاعرين الزبيري والأميري، حيث يقول: "...وكلاهما شاعر رقيق متعبد متصل بالله من طريق المحافظة على الصلاة في أوقاتها، فجمعت بينهما كراتشي بعد أن جمعت بينهما تلك الخلال، وكان كل واحد منهما أنسا وكمالا لوجوده، وتطارحا الشعر فكان كل واحد منهما مذكيا لقريحة صاحبه، وصدرت عنهما بدائع في الجد والهزل والمباسطات..."ص34.	

(الإبراهيمي، 1997، ص30، 31/ 34، 35، 36/ 42، 43/ 57، 58)

وإن المتأمل لمضمون هذا الجدول يكتشف ذلك التقاطع الحاصل بين التفاعل والتعدد في الوصف الجميل الشائق الماتع، ويمكن تجسيد الفكرة بالشكل التالي:

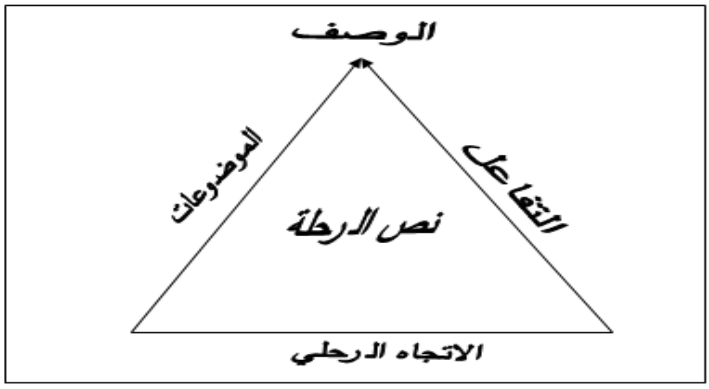

كنا قد تحدثنا عن الركن الأول من هذا المخطط، أما الآن سنخصص الحديث عن الركن الثاني الذي يتعلق بالإعداد الدقيق لمونوجراف خاص تغلب عليه أيضا سمة الوصف المتكامل لثقافة الشعب الباكستاني، وتحليلها تحليلا يناسب اختلاجات مشاعره اتجاه من التقى بهم، بمعنى: الرحالة يصور في رحلته بعض خواطره الشخصية وبعض ما يموج به الواقع من حولهم من حركة واضطراب، ويمكن التمثيل لذلك كالتالي: (بن سمينة، 2003، ص41).

الوصف المتكامل للثقافة	موقفه من بعض الثقافات
– مثال من محور "مشكلة اللغة". يتحدث فيه عن اللغة العربية في باكستان "والتحمس السائد للعربية في باكستان مبني على عاطفة دينية لا على واقع، أما الواقع الذي تحادثت في تصويره مع من تحادثت معهم من رجال الحكومة، ومن المفكرين المعنيين بهذه المسألة، فهو أن جعل اللغة العربية رسمية لأمة يناهز عددها مائة مليون أمر متعسر ما دام هذا العدد الضخم كله يجهل العربية، بل يجهل أن لغته الأوردية قريبا من خمسين بالمائة من الألفاظ العربية الفصيحة، فإذا عرضت عليه كلمة لم يعرف أن أصلها عربي، وإنما يعرف أنها أوردية وكفى...ص39.	مثال من محور "كلمة حق". يعرض فيه موقفه من عادة "تعظيم العلماء حيث يقول: "...اعترضني المصلون من أول خطوة يقبلون يدي ويضعونها على جباههم وأقفائهم ومنهم من يتمسح بثيابي، ولقد صحت في الناس في أول مرة، قلت: يا قوم، هذا منكر؛ فلما لم يكفوا، قلت: هذا حرام..."ص45.

(الإبراهيمي، 1997، ص39/ 45).

فبما أن نتاج العمل الاثنوجرافي هو الدراسة، فإن عمل الإبراهيمي جاء منظما يخضع للتحليل والتدقيق، والإلمام بجميع جوانب العلم والمعرفة، ومن بين الأمثلة على ذلك، ما ورد في محور "بدء الأعمال العامة"، عن رأيه في مسلمي باكستان والهند حيث يقول: "إنهم لينفردون بخاصية، سميتها بعد التأمل والدراسة «القابلية»..."(الإبراهيمي، 1997، ص43).

ولعل الشكل الآتي اختصار للتصوير الاثنوجرافي في رحلة الإبراهيمي:

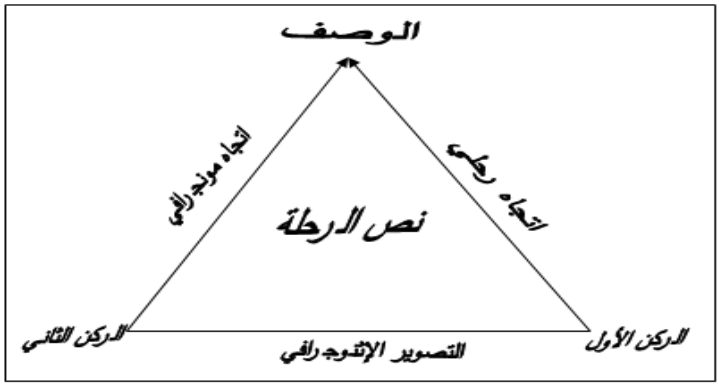

4. تحليل النتائج:

وصفوة القول: رغم تعدد مستويات التعبير عند الإبراهيمي، إلا أن الطابع الأدبي الذي يمثله السرد والوصف قد طغى على الخطاب الرحلي، الذي كشف عن بعد اثنوجرافي يجمع بين مناح عدة منها: التاريخية والجغرافية والدينية والسياسية والثقافية والاجتماعية والسياحية، والأمثلة على ذلك كثيرة، وهي واردة بشكل واضح في مضمون الرحلة، ونلمس روح الأديب الواصف منذ حطت الطائرة بالكاتب في مطار القاهرة مرورا بحاله في فندق باكستان ووضعه في القطار يعبر فيافي من باكستان أو في السيارة يشاهد من خلالها مناظر خلابة صعودا ونزولا بين مرى وايبت أباد، في منعرجات من بعض جبال كشمير، ووهادها، وانتهاء بتلك الأشواق التي حمّل فيها ريح الصِّبا حبه الجزائر، وحنينه إليها. (بن قينة، 1995، ص156).

5. خاتمة:

إن الدراس لرحلة الإبراهيمي سيدرك تماما مدى عمق هذه التجربة التي عبر عنها بأسلوب خاص متميز قلبا وقالبا، يبعث في القارئ شعورا بالارتياح والرغبة في الاستزادة في كل مرحلة من مراحلها، أحيانا بمنظار الرحالة المكتشف لأنحاء الأرض الباكستانية، الواصف لأماكنها ولشخوصها، والمشاهد لمختلف الأحداث، وأحيانا بمنظار الاثنوجرافي المتأمل الواصف للثقافات والمواقف، والدارس المحلل لجوانب إنسانية عدة، وانطلاقا من هذه الخصوصية نضع بين أيدي القراء جملة من النتائج المتوصل إليها بعد جولة ماتعة في أرجاء الرحلة الإبراهيمية الباكستانية نقرها في الآتي:

- إن البعد الاثنوجرافي في الخطاب الرحلي عند الإبراهيمي جمع بين جانبين التعليمي، والإمتاع الأدبي، حيث يستفيد القارئ من معلومات الإبراهيمي ومعارفه ويبعث فيه المتعة والارتياح والشوق للمتابعة.

- أصبح واضحا أن رحلة الإبراهيمي علمية بالدرجة الأولى لأن أساسها: حضور "مؤتمر الشعوب الإسلامية"، أما الأغراض الأخرى التي ذكرها الإبراهيمي فيمكن اعتبارها ثانوية.
- استطاع الإبراهيمي بما يملكه من قدرات عملية ومعرفية ومنهجية التحكم في خطة سير الرحلة من خلال منهجية الإجمال ثم التفصيل.
- إن حسن التخلص عند الإبراهيمي عالج مشكلة الاستطراد الذي كان يلازمه في أكثر من مقام.
- تأكدنا مليا بأن أسلوب الإبراهيمي في فن الرحلة تمثل في الطابع الأدبي الذي تغلب عليه سمتي السرد والوصف، لذا جاء جميلا أنيقا، من حيث الصياغة، مسجوعا، فصيح اللغة؛ بالإضافة إلى الأسلوب الفكاهي في بعض المواضع.
- إن أهم مشكلة واجهت الإبراهيمي، هي اللغة إلا أنه استطاع تجاوزها عن طريق مجهوده الخاص في جمع وحفظ بعض المفردات والجمل، التي يحتاجها في التعامل اليومي مع الناس، بالإضافة إلى ترجمان خاص يترجم عنه مجموع المحاضرات والخطب في مجالس العلم منها الجامعات والمساجد.
- من بين سمات فن الرحلة عند الإبراهيمي أنه مرغوب شائق، ونافع هام في الوقت نفسه.
- أضفى الإبراهيمي على نص الرحلة لمسة خاصة، وظف فيها معظم فنون الأدب من خطبة، ومقالة، ورواية، وقصة، ورسالة، أضف إلى أبيات شعرية، بمعنى: مارس نشاطه الأدبي في فن واحد هو الرحلة.

6. قائمة المراجع :

أ/ الكتب:

1- الإبراهيمي محمد البشير، "آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي"، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ج4، 1997م.

2- الإبراهيمي محمد البشير، "آثار محمد البشير الإبراهيمي"، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ج4، 1985م.

3- بوقرورة عمر أحمد، "بناء النسق الفكري عند محمد البشير الإبراهيمي"، قراءة في ظل البنية والمتغير، عين مليلة، الجزائر: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، 2004م.

4- حمادي عبد الله، "رحلة محمد الزاهي الميلي من باريس إلى... قسنطينة 1938"، قسنطينة، الجزائر: مطبعة البعث،2004م.

5- حسني محمود حسين،"أدب الرحلة عند العرب"، بيروت، لبنان: دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ،1403هـ، 1983م.

6- مرتاض عبد الملك، "فنون النثر الأدبي في الجزائر"، 1954،1931، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1983م.

7- بن سمينة محمد، "في الأدب العربي الحديث بالجزائر"، الفنون الأدبية في آثار الإمام عبد الحميد بن باريس، الجزائر: مطبعة الكاهنة، 2003م.

8- بن قينة عمر، "اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة"، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1995.

ب/ الدواوين:

9- ديوان الإمام الشافعي محمد بن إدريس، تحقيق: عبد الرحمان الطويل، الجزائر: دار المجدد للنشر والتوزيع ،2011م.

ج/ المجلات:

10- فهيم حسين محمد، "أدب الرحلات"، عالم المعرفة، ع138، 1989م.

ج/ الرسائل الجامعية:

11- دلاندة لبنى، "الفنون النثرية في آثار البشير الإبراهيمي"، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الأدب الجزائري الحديث، جامعة باتنة1: الجزائر، 1437هـ، 2016م.